# الشك واليقين في شعر أبي العلاء المعري وعبد المحسن الصوري

د. أحمد نزّال

## المقدمة:

لا أحاول في هذا البحث أن أعرض سردًا تاريخيًّا لحياة الشاعرين: المعري الذي كثرت الدراسات عن شعره، وباتت تُعدُّ بالمئات، واستغرق جهود عدد من الباحثين، وهو، على كل حال، قد تنبأ بانشغال الباحثين بأدبه بعد وفاته، والصوري، وهو شاعر "مغمور" لم يُعرف من بين الشعراء الذين طَبَعوا العصر العباسي، ولم ينل شعره، في تقديري، الدراسات التي يستحقها، كما نال شعر معاصريه، ومن بينهم المعري. لذا تناولْتُ، بشيءٍ من التفصيل، ولادته ونشأته وديوانه وبعض خصائص شعره، ليكون القارئ على بيّنة من هدفنا المبيّن أعلاه في عنوان البحث.

انطلق هذا البحث من خبرين اثنين: أولهما أبيات ثلاثة للصوري مثبتة في ديوانه، تفيد بأنه التقى أبا العلاء، وجرَتْ مناظرة بينهما في موضوع البعث والحساب والثواب والعقاب، وثانيهما حوار بين المعري وابن حيوس يحضر فيه الصوري بوصفه قدوة لابن حيوس، وهذا ما يلومه عليه المعري. فقمنا بتحقيق الخبر الأول، انطلاقًا مما توفر لدينا من معلومات، فتحدثنا عن اللقاء وزمانه ومكانه وطبيعته، ووصلنا إلى استنتاجات أثبتناها في نهاية البحث.

### ١- عبد المحسن الصوري (٣٣٩-٤١٩هـ):

#### ١-١ التعريف بالشاعر:

هو عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري(١). وقد وردت ترجمته في مصادر عديدة، لكنّ معظمها لم يفصل في الكلام على الشاعر، واكتفى بذكر بعض الأبيات المنسوبة إليه. ويبدو أنّها أُخِذَتْ مما ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر، إذ أورد له حوالى ٢٢٥ بيتًا من الشعر، من دون الإشارة إلى مصدرها، وقال في مقدمة ترجمته: "أحد المحسنين الفضلاء، المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ، حسن المعاني، رائق الكلام، من محاسن أهل الشام"(٢)، وقد أضاف ابن خلكان إلى هذه الترجمة قوله: "له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان"(٣)، وقد أورد له ٢٨ بيتًا أخذ معظمها مما ذكره الثعالبي في اليتيمة.

#### ١-٢- ولادته ونشأته:

ولد عبد المحسن الصوري في مدينة صور، ونشأ فيها. و"كان ميالاً منذ صباه إلى الشعر، يقرضه فيجيد، وينظمه فيبدع، فاتخذه صناعة له ووسيلة كسب عيشه التي منَّتْ عليه بها الحياة"(٤). كتب في أغراض الشعر من وصف ومديح ورثاء وهجاء، عدا الحماسة والفخر، كان فقيرًا لا يملك قوت يومه، ويصرّح، في غير موضع من الديوان، أنّ أقبح ما منَّتْ عليه الأيام أنّها جعلَتْ "مهنة" الشعر مصدر عيشه ورزقه، يقول: [البسيط والقافية من المتراكب]

**وليسَ عندَ الليالي أنْ أقبحَ ما**
**صنعْنَ بي أنْ جعلْنَ الشعرَ مكتسبي**(٥)

إلا أنّ مدحه الذي يهدف إلى التكسُّب، لم يجعله ينطق بالكذب، فيقول: [البسيط والقافية من المتراكب]

**إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ مدحٍ فهَا أنا ذا**
بِحَيْثُ آمَنُ في قولي مِنَ الكَذِبِ(٦)

وتفيد قراءة شعره أنه عاش حياة بائسة، وأنه عانى معاناة شديدة من مصائب الدهر التي أصابتْهُ، وجعلَتْ أيّامه سوداء طويلة: [مجزوء الكامل والقافية من المتواتر]

**ونوائبٍ أظهرْنَ أيّا**
**مي إليَّ بِصُورَتَيْنِ**
**سوّدْنَهَا وأطلْنَهَا**
**فرأيْتُ يومًا ليْلَتَيْنِ**
**هلْ بعدَ ذلكَ مَنْ يُعَرْ**
**رِفُني النُّضارَ مِنَ اللُّجَيْنِ**
**متكسبًا بالشعرِ يا**
**بئسَ الصناعةَ في اليَدَيْنِ**(٧)

وقد عُرِفَتْ هذه القصيدة واشتهرت، وتداولها الشعراء، وحفظها الأمراء. ومن الأخبار الدّالة على ذلك، أن أحد الشعراء انتحلها، ومدح بها أحد الأمراء، فأعطاه الأمير جائزة، فقال الناس للأمير: هذه

القصيدة لابن غلبون الصوري، وقد انتحلها هذا الشاعر! فقال الأمير: أنا أعرف هذا، وأحفظ القصيدة، لكنّ هذا الشاعر أضاف إليها بيتًا أحببْتُ أن ينتشر، وهو:

**وَلَكَ المناقبُ كلُّها**
**فَلِمَ اقتصرْتَ على اثنتَيْنِ!؟(٨)**

**١ - ٣- في الزمن الأخير... يعوذ بالأمل القصير:**

كتب إليه الشاعر أحمد بن سليمان المعروف بالفخري أو النحوي (ت٣٩٣هـ) قصيدة يقول فيها: [الوافر والقافية من المتواتر]

**أعبدَ المحسنِ الصوريِّ لمْ قَدْ**
**جثمْتَ جثومَ منهاضٍ كسيرِ**
**فإنْ قلْتَ: العبالةُ أقعدَتْني**
**على مضضٍ وعاقَتْ عَنْ مسيري**
**فهذا البحرُ يحملُ هضبَ رضوى**
**ويستثني بركنٍ منْ ثبيرِ**
**وإنْ حاولْتَ سيرَ البَرِّ يومًا**
**فلسْتَ بمثقلٍ ظهرَ البعيرِ**
**إذا استحلى أخوك قلاكَ يومًا**
**فمثلُ أخيكَ موجودُ النظيرِ**
**تحرّكْ علَّ أنْ تلقى كريمًا**
**تزولُ بقربِه إحنُ الصدورِ**
**فما كلُّ البريةِ مَنْ تَرَاهُ**
**ولا كلُّ البلادِ بلادُ صورِ**

فأجابه عبد المحسن:

**جزاك الله عنْ ذا النصح خيرًا**
**ولكنْ جاء في الزَّمنِ الأخيرِ**
**وقدْ حدَّثْ ليَ السبعونَ حدًّا**
**نَهَى عمَّا أمرْتَ منَ الأمورِ**
**ومُذْ صارَتْ نفوسُ الناسِ حولي**
**قِصارًا عُدْتُ بالأملِ القصيرِ(٩)**

نتبيَّن، في هذه الرسالة وجوابها، عدّة أمور: أولها أنّ الصوري أقام في صور إقامة تشبه جثوم الطائر المنهاض الكسير، وثانيها أنّه كان معروفًا في زمانه على الرغم من قلّة تنقله، وأنّ الشعراء الآخرين يرغبون في لقائه، وثالثها أنّ الصوري آل إلى اليأس من هذا الزمن الذي خبره، وجرّبه وعاش لياليه السود الطويلة(١٠).

حتى اضطرته هذه الحالة السيئة إلى بيع أثوابه ليشتري بها قوتًا يردُّ عنه غائلة الجوع، وفي ذلك يقول: [السريع والقافية من المتدارك]

**ها أنا ذا منْ بينِ أهلِ النّدى**
**والمجدِ منْ بانٍ ومنْ كاتبِ**
**أبيعُ أثوابي ويا ليْتَهَا**
**تقومُ لي بالقائمِ الراتبِ(١١)**

**١ - ٤- ديوان الشاعر عبد المحسن الصوري:**

إنّ الديوان الذي بين أيدينا هو من تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، صادر عن دار الرشيد للنشر بالعراق في طبعته الأولى عام ١٩٨١م، وقد كان هذا الديوان موضوع رسالتنا لنيل شهادة دبلوم اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية، بعنوان: "ديوان عبد المحسن الصوري: خصائصه الفنية وقضاياه الرئيسية". زنزقشت الرسالة عام ٢٠١٣م، ونالتْ تقدير "جيد جدًّا".

**١ - ٥- أغراض شعره:**

نظم الصوري في مختلف أغراض الشعر، إلا أنّ اللافت هو غلبة المديح على الديوان، ويمكننا عده الغرض الأساسي فيه، وكان هذا المديح وسيلة للتكسب عنده، فرضتها ظروف الحياة القاسية، وسود الليالي وطولها. وقد حظي الأمراء والوزراء والكتاب بجانب كبير من مدائحه بغية العطاء، إذ سافر إلى البلاد القريبة رغبة في العطاء وكسب الهبات من ذوي النفوذ، وهذا ما سنتبينه بعد قليل في أسفاره. وقد مدح الصوري الأمراء والولاة وكاتبي الخراج وصغار الموظفين، مما لا يسمح المجال لذكرهم على كثرتهم في عناوين القصائد والمقطوعات.

على أنّ أخاه عبد الصمد، وهو ثري ميسور الحال، كما يفيد شعر الصوري، لم يكن ينظر إلى أخيه، ولم يقدم له المساعدة، فهجاه الصوري بعدة مقطوعات هجاءً مقذعًا، نلتمس فيه أمرين: أولهما يشير إلى سوء حالة الصوري حتى يقوم بهذا الهجاء، وثانيهما أن حالته هذه باتت معروفة ومنتشرة عند كل من يعرفه، القريب والبعيد، وهذا ما يدلل عليه البيت السابق في رسالة أحمد بن سليمان إلى الصوري:

**إذا استحلى أخوكَ قلاك يومًا**
**فمثلُ أخيكَ موجودُ النظيرِ**

ومن نماذج هذا الهجاء قوله مخاطبًا من يريد زيارة أخيه عبد الصمد: [المنسرح والقافية من المتواتر]

**إذا عزمتم على زيارته**
**فودعوا الخبز أينما كنتم**
**فليس يحتاج أن يقول لكم**
**صوموا، أضيفوا به وقد صمتم(١٢)**

ومنها قوله: [الرمل والقافية من المتدارك]

**قالَ لي: أنتَ أخو الكلبِ، وفي**
**ظنّه أنْ قَدْ تناهى واجتهدْ**
**أحمدُ الله كثيرًا أنَّهُ**

ما درى أنّي أخو عبدِ الصمَدْ(١٣)

**١ - ٦- سرعة بديهته وإجادته المناظرة:**

وإن كان الصوري قد أنس بوحدته، فإنه كان، كما تفيد بعض الأخبار التي وصلتنا عنه، سريع البديهة، يجيز الشعر ارتجالاً ويجيد في ذلك، كما كان يجيد التحدث والمناظرة...

وقد جاء في "بدائع البدائه" لعلي بن ظافر الأزدي، بإسناده عن بكار بن علي الرياحي بدمشق، يقول: "لما وصل عبد المحسن الصوري إلى هنا، جاءني المجدي الشاعر، فعرفني به وقال: هل لك أن نمضي إليه ونسلم عليه؟ فأجبت، وقمت معه، حتى أتينا إلى منزله. وكان ينزل دائمًا إذا قدم إلى دمشق، في سوق القمح، وكان بين يديه دكان قطان، فيها رجل أعمى، فوقفت به عجوز كبيرة، فكلّمها بشيء وهي منصتة له، فقال المجدي في الحال:

**منصتةٌ تسمعُ ما يقولُ**

فقال عبد المحسن في الحال:

**كالخلدِ لمّا قابلَتْهُ الغولُ**

فقال له المجدي: أحسنْتَ والله يا أبا محمد، أتيْتَ بتشبيهين في نصف بيت، أعيذك بالله(١٤).

**١ - ٧- بعض خصائص شعره:**

طغَتِ المقطوعات الشعريّة على ديوان الصوري، ولعلَّ ذلك عائد إلى مفهوم الصوري للشعر، وهو إجادة أداء المعنى، وإن لم تطل العبارة، وهذه مزية جيدة في شعر الصوري.

يقول مخاطبًا أحد المدوحين: [الكامل والقافية من المتدارك]

**لَقَد انفردْتَ، فكنْتَ وحدَكَ سامعًا**
**وَقَد انفردْتُ، فكنْتُ وحدي شاعرا**
**فلطالَمَا كَثُرَتْ أقاويلُ الورى**
**فأتَيْتُ بالنُّزْرِ القليلِ مُكاثرا(١٥)**

وهذا مفهومه للشعر: القصد إلى تكثيف المعاني، وإجادة تمثيلها لغة شعرية مجودة منقحة تؤدي موجزة ما تؤديه القصائد الطوال من معانٍ، وهذا ما يفيده تعريفه للشعر: [مجزوء الكامل والقافية من المتواتر]

**والشعرُ ما طالَتْ مَعَا**
**نيهِ، وإنْ قَلَّ النّشيدُ(١٦)**

كما أننا، نلاحظ، في ديوان الشاعر، إجادة بناء القصيدة المدحية الطويلة، من طريق توظيف أقسامها في بناء متماسك، يمثل تجربة عميقة، في لغة شعريّة ذات معجم عذب وصور مبتكرة ومحسنات بديعية لطيفة، تؤدي معاني مكثفة عميقة جعلتْه يحتل منزلة عليا في تاريخ الشعر العربي على الرغم من عزلته في مدينة صور.

**١ - ٨- أسفاره:**

كان الصوري قليل الأسفار، فإن خرج لم يتجاوز البلاد الشامية، وذلك في أوائل شبابه، إلا أنه أقام علاقات متينة مع شعراء عصره، ومنهم: أبو القاسم الحسين بن ضحى، المجدي الشاعر، أبو القاسم علي بن بشر، أبو الحسن علي بن لؤلؤ، أبو عبدالله إسحاق بن القوالة، أحمد بن سليمان بن علي المعروف بالفخري، أبو محمد الحسن بن علي ابن وكيع التنيسي، وأبو العلاء المعري...، وقد "اتصل في صباه بالحمدانيين في حلب، ومدح أمراءهم كمبارك الدولة ومنير الدولة ابن حمدان... ثم ما لبث أن اتصل ببكجور والي حمص، ثم انقلب إلى بنجوتكين يمدحه..."(١٧).

**٢- أبو العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ):**

ولد المعري في معرة النعمان في سوريا سنة ٣٦٣هـ، ينتمي إلى عائلة بني سليمان، والتي بدورها تنتمي لقبيلة تنوخ. جده الأعظم كان أول قاضٍ في المدينة، وقد عرف بعض أعضاء عائلة بني سليمان بالشعر. فقد بصره في الرابعة من العمر نتيجة لمرض الجدري. بدأ يقرأ الشعر في سن مبكرة، في حوالى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره في بلدته معرة النعمان، ثم ذهب للدراسة في حلب وأنطاكية، وغيرها من المدن السورية. فدرس علوم اللغة والأدب والحديث والتفسير والفقه والشعر على نفر من أهله، وفيهم القضاة والفقهاء والشعراء، وقرأ النحو في حلب على أصحاب ابن خالويه، ويدلُّ شعره ونثره على أنه كان عالمًا بالأديان والمذاهب، وعقائد الفرق، وكان آية في معرفة التاريخ والأخبار. أخذ المعري النحو وشعر المتنبي عن محمد بن عبد الله بن سعد النحوي. وهو أحد رواة شعر المتنبي.

وزاول مهنة الشاعر والفيلسوف والمفكر الحر. حيث سافر المعري إلى وسط بغداد لمدة زمنية قصيرة، حيث جمع عددًا كبيرًا من التلاميذ الذكور والإناث للاستماع إلى محاضراته عن الشعر والنحو والعقلانية. وإحدى الموضوعات المتكررة في فلسفته كانت حقوق العقل (المنطق) ضد إدعاءات العادات والتقاليد والسلطة.

كان على جانب عظيم من الذكاء والفهم وحدة الذهن والحفظ وتوقد الخاطر، وسافر في أواخر سنة ٣٩٨هـ إلى بغداد، فزار دور كتبها وقابل علماءها. وعاد إلى معرة النعمان سنة ٤٠٠هـ، وشرع في التأليف والتصنيف ملازمًا بيته، وكان اسم كاتبه علي بن عبد الله بن أبي هاشم.

عاش المعري بعد اعتزاله زاهدًا في الدنيا، معرضًا عن لذاتها، لا يأكل لحم الحيوان، حتى قيل إنه لم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة، ولا ما ينتجه من سمن ولبن أو بيض وعسل، ولا يلبس من الثياب إلا الخشن. حتى توفي عن عمر يناهز ستة وثمانين عامًا، ودفن في منزله بمعرة النعمان(١٨).

ويقسم الباحثون حياة المعري إلى ثلاث مراحل، مع الإشارة إلى عدم وجود انفصال بين مرحلة وأخرى، ولكن المراد تلك التحولات التي تتباين درجتها بين مرحلة وأخرى بفعل عوامل موضوعية وذاتية.

- المرحلة الأولى: حياته في المعرة.
- المرحلة الثانية: رحيله إلى بغداد سنة ٣٨٩هـ.
- المرحلة الثالثة: مرحلة العزلة.

### ٢- ١- المرحلة الأولى:

يماثل نص المعري في المرحلة الأولى القصيدة العربية من حيث شكلها وبناؤها وأغراضها، ففيه المديح والغزل والرثاء والنسيب والهجاء...، ويماثل نصوص أسلافه من الشعراء من حيث البناء الموسيقي والتركيبي. ولا يخلو شعر هذه المرحلة من القلق، وإن برز بنسبة قليلة. نتج عن هذه المرحلة ديوان "سقط الزند". يشير التبريزي إلى موقف شيخه من أشعار "سقط الزند" فيقول: "فرأيته يكره أن يقرأ عليه شعره في صباه الملقب بـ "سقط الزند"، وكان يغيّر الكلمة إذا قرأت عليه شعره، ويقول معتذرًا من تأبيه وامتناعه من سماع هذا الديوان: مدحْتُ فيه نفسي، فأنا أكره سماعه"(١٩). وما عنوان الديوان إلا صلة وثيقة بين الديوان ورأيه في شعر تلك المرحلة.

### ٢- ٢- المرحلة الثانية:

هي المرحلة التي ذهب بها إلى العراق، وأقام بها حوالى سنتين، إذ التقى الأدباء والطلاب، فأفاد واستفاد، إلا أنّه اختار العودة سريعًا إلى بلده. ولا يمكن تحديد هذه المرحلة تحديدًا زمنيًّا، لأنَّ ملامحها تظهر في كثير من قصائد "سقط الزند"، ويشكل غرضا الحكمة والرثاء أبرز أسس هذه المرحلة.

### ٢- ٣- المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي تلي عودته من العراق إلى أواخر حياته، حيث "تبلور في هذه المرحلة وعيٌ كبير بالذات ونضجٌ فكريٌّ وسعة خيال وتمثيل كبير للأدب العربي وتراثه على نحو خاص والفكر الإنساني على نحو عام"(٢٠). وفي ذلك يقول: [البسيط والقافية من المتراكب]

**ما كانَ في هذه الدنيا بنو زمنٍ**
**إلا وعندِيَ منْ أخبارهمُ طَرَفُ**(٢١)

أو قوله: [الطويل والقافية من المتواتر]

**لَعَمْرُكَ ما غادرْتُ مطلعَ هضبةٍ**
**منَ الفكرِ إلا وارتقيْتُ هضابا**(٢٢)

ومن أهم ما نتج عن هذه المرحلة ديوان "اللزوميات"، وكتاب "الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ"، وهو كتاب يطفح بالورع والتقوى وتمجيد الله والإقرار له بالعبودية، مفعم بالإيمان، لم يضعه المعري، كما يرى البعض، لكي يضاي القرآن، فلا مجال فيه للشك في صدق مؤلفه وإخلاصه(٢٣).

### ٢- ٤- شعر هذه المرحلة من حيث الشكل:

حافظ المعري على إيقاع الوزن في هذه المرحلة، من حيث العروض الخليلي والروي الموحد، وألزم نفسه في ما لا يلزم، وهو أن يجعل القافية ذات رويين أو أكثر، ويلتزم بذلك في الأبيات جميعًا كالتزامه بالروي، وإن كان لا يسمى رويًا، لأن الروي هو الحرف الأخير فقط. وهذه الصنعة اللفظية لا تظهر في البيت على انفراد، وإنما تظهر بالنسبة إلى ما قبله وما بعده من الأبيات.

لقد ألزم أبو العلاء نفسه بهذا القيد، كما يرى معروف الرصافي، لإظهار تفوّقه على أقرانه وأهل الفصاحة واللسان، وهذا يناسب ما دلَّ عليه شعره في اللزوميات، حين يذم الناس ويمقت ما هم عليه من أحوال، ويكذب ما يدعون من الفضل والشرف، ولا يستثني نفسه من ذلك(٢٤).

### ٢- ٥- شعر هذه المرحلة من حيث المضمون:

يتميز شعره بغياب المديح والنسيب والغزل والرثاء...، والتعبير عن القضايا الكونية والإنسانية والفلسفية، وانشغاله بهواجسه وقلقه وخوفه. فيها الشك واليقين والألم واللذة والنقد والسخرية. فقد "كان

الرجل جاهدًا في التماس الحق والبحث عنه، وكان صادق الجهد خالص النية في هذا البحث، وكان ملائمًا بين ما يستكشف من الحق وما يأخذ نفسه به من قوانين الحياة اليومية"(٢٥).

**٢- ٦- الشك واليقين!!!**

نقل الرواة عن تلميذ المعري أبي زكريا التبريزي أنه قال: قال لي المعري مرة: ما الذي تعتقد؟ فقلت في نفسي: اليوم أقف على اعتقاده. فقلت له: ما أنا إلا شاك. فقال: وهكذا شيخك (٢٦). ويعلّل أحمد تيمور باشا هذا الشك، نافيًا عنه "تهمة" الإلحاد، فيقول: "لم يكن ملحدًا كما يزعمون، بل كان مؤمنًا بالله وكتبه ورسله، وإنما كانت تقع له بعض الأحيان أحوال يضيق بها صدره، فينفث نفثات يوهم ظاهرها، وكان الأولى به تركها، وهي مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد"(٢٧).

لقد اتخذ المعري العقل معيارًا وميزانًا لكل الأمور، يقول: [الخفيف والقافية من المتواتر]

**كَذَبَ الظنُّ، لا إمامَ سوى العقلِ مشيرًا في صُبْحِه والمساء**
**فإذا ما أطعْتَهُ جَلَبَ الرحمةَ عندَ المسيرِ والإرساء(٢٨)**

ويرفض المعري كل فعل فيه خروج على العقل، فيسخر من العرافين والمنجمين، يقول: [الكامل والقافية من المتدارك]

**سألَتْ منجِّمَهَا عَنِ الطفلِ الذي**
**في المهدِ كَمْ هَوَ عائشٌ مِنْ دهرِه**
**فأجابَهَا مائةً ليأخذَ دِرْهَمَا**
**وأتى الحمامُ وليدَهَا في شهرِه(٢٩)**

والمعري حينما يدعو إلى العقل، فإنما يدعو إلى تعرية الواقع من الزيف والخداع المنتشر بين الناس على اختلاف مقاماتهم. فنراه ينتقد الوعاظ والفقهاء والقضاة، وما يمارسونه من عادات اجتماعية تحدُّ من دور العقل وتزييف الحقائق: [الوافر والقافية من المتواتر]

**رويدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وأنت حرٌّ**
**بصاحبِ حليةٍ يَعِظُ النساءَ**
**يُحرِّمُ فيكمُ الصهباءَ صبحًا**
**ويشربُها على عمدٍ مساءَ**
**تَحسَّاها فَمِنْ مزجٍ وصرفٍ**
**يغلُّ كأنَّما وَرَدَ الحساءَ**
**يقولُ لكم: غدوْتُ بلا كساءٍ**
**وفي لذَاتِها رَهَنَ الكساءَ(٣٠)**

وكشف زيف العبادات حين تضم بين طياتها الشر والحقد، يقول: [البسيط والقافية من المتراكب]

**ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمونَ لَهُ**
**ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدِ**
**وإنَّما هو تركُ الشرِّ مُطَّرحًا**
**ونفضُكَ الصدرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ**
**ما دامَتِ الوحشُ والأنعامُ خائفةً**
**فَرْسًا، فما صحَّ أمرُ النَسكِ للأسَدِ(٣١)**

لقد اشتملت هذه المرحلة على كثير من الجدل والسخرية ومسائل أدبية وفلسفية، وهي تعبر عن تفكيره وذوقه وشخصيته أصدق تعبير... وقد كان يجول كثيرًا في مضمار الشك واليقين، لذا يبدو مؤمنًا وطمئنًا تارةً، وموسوسًا ومرتابًا تارة أخرى، فكانت اللزوميات مظان فكره وفلسفته ومستودع آرائه"(٣٢).

وهناك الكثير من النماذج الشعرية التي تشير إلى إيمانه إقراره بوجود الله، منها قوله: [الوافر والقافية من المتواتر]

**تعالى الله كَمْ ملكٍ مهيبٍ**
**تبدَّل بعدَ قصرٍ ضيقَ لحدِ**
**أقرُّ بأنَّ لي ربًّا قديرًا**
**ولا ألقى بدائعَهُ بجحدِ(٣٣)**

## ٣- اللقاء بين أبي العلاء المعري وعبد المحسن الصوري:

### ٣- ١- هل حصل اللقاء فعلاً؟

لقد مرَّ بنا أن عبد المحسن الصوري قصد الديار الشامية غير مرة، ومدح أمراءها، بهدف التكسّب وجلب الرزق، وذلك في مطلع شبابه. ولم نعثر في أي مصدر على ما يؤكد حصول هذا اللقاء أو ينفيه، وإنما نرجح حصوله من خلال خبرين اثنين:

أولهما أننا عثرنا على ثلاثة أبيات تفيد بحصول اللقاء والمناظرة بينهما حول موضوع البعث والحساب، والأبيات المقصودة هي: [السريع والقافية من المتواتر]

**نجا المعريُّ مِنَ العارِ**
**وَمِنْ شناعاتٍ وأخبارِ**
**وافَقَني أمسِ على أنَّهُ**
**يقولُ بالجنَّةِ والنَّارِ**
**وأنَّهُ لا عادَ مِنْ بعدِهَا**
**يصبو إلى مذهبِ بَشَّارِ(٣٤)**

والثاني هو الحوار الذي جرى بين أبي العلاء المعري والشاعر أبي الفتيان بن حيُّوس. قال المعري بعدما سمع أبياتًا للصوري: "هذه لقصيرك"، ويقصد عبد المحسن الصوري. فردَّ ابن حيوس: "هو أشعر من طويلك"، قاصدًا المتنبي(٣٥).

من خلال هذين الخبرين، نرجّح حصول اللقاء بين الشاعرين، وهو أمر جائز، بل طبيعي بين أهل الأدب في كل زمان.

**٣- ٢- زمان اللقاء:**

لم نجد في ديوان الصوري ذكرًا لتاريخ قول الأبيات الثلاثة، لأن اللقاء حصل قبل قول هذه الأبيات بقليل. كما لم نعثر في أي مصدر على تاريخ اللقاء، ولكننا تقصينا هذا الأمر من خلال ممدوحي الصوري في الديوان من الحمدانيين، وإذ نعثر على قصيدة قالها عبد المحسن في مدح الناصح بن علي الهاشمي الذي كان واليًا على معرة النعمان أيام سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني (ت٣٨١هـ)، ومطلعها: [البسيط والقافية من المتراكب]

**أصارَ يألفُ فيضَ الدمعِ مدمعُهُ**
**أم الأسى عَنْ جميلِ الصبرِ يردَعُهُ(٣٦)**

أو انتقاله إلى مدح أبي الفوارس بكجور بدمشق الذي قتله سعد الدولة سنة ٣٨٢هـ، ومطلعها: [الطويل والقافية من المترادف]

**بدائعُ مِنْ أفعالِهنَّ البدائعُ**
**ويتَّفقُ اللفظانِ والخُلْفُ واقعُ(٣٧)**

وله قصيدة في بكجور نفسه، ذكر تاريخها في الديوان سنة ٣٧٤هـ. ومدح أيضًا أبا الحسن علي بن الحسين المغربي وزير بكجور في قصيدة مطلعها: [الكامل والقافية من المتواتر]

**أتُرى بثأرٍ أمْ بدَيْنِ**
**عَلِقَتْ مَحَاسِنُهَا بعَيْنِي(٣٨)**

وغيره مثل الأمير التركي منجوتكين الذي ولاه العزيز بالله أمر جيوشه على الشام سنة ٣٨١هـ، وبقي حتى وفاته سنة ٣٨٥هـ، ومدح أيضًا الشريف العقيقي صاحب الدار المشهورة بدمشق، والذي توفي سنة ٣٧٨هـ، ومدح أيضًا بشارة الإخشيدي الذي ولي دمشق سنة ٣٨٨هـ، ومدح أيضًا أبا الفتوح جيش بن محمد بن الصمصامة الذي تولى نيابة دمشق مرارًا، والذي توفي سنة ٣٩٠هـ، ومدح كثيرين في هذه الحقبة الزمنية(٣٩). ونفيد مما جاء في أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، يقول: "لم يخرج من الديار الشامية، بل لم يخرج من مدينته صور إلا نادرًا، وذلك في أوائل شبابه، إذ خرج إلى دمشق وفلسطين، هذا ويكثر ذكر صيدا، وطبرية والرملة في شعره"(٤٠). بعد هذا العرض، وانطلاقًا من أنّ أغلب ممدوحي الصوري في دمشق، من الأعيان والوزراء والأمراء، تولّوا مهامهم في الحقبة الزمنية (٣٧٥-٣٨٨هـ)، فإننا نرجح أن يكون اللقاء حصل بينهما في هذه المدة الزمنية، أي قبل رحيل المعري إلى بغداد سنة ٣٨٩هـ، لأن المعري عاد وانقطع عن الناس قابعًا في منزله في المعرة.

**٣- ٣- مكان اللقاء:**

نرجح أن يكون مكان اللقاء في دمشق التي زارها الصوري كثيرًا في تلك الحقبة الزمنية، أو إحدى المدن الشامية القريبة من دمشق، أو في المعرة نفسها. إذ لا نستبعد حصول اللقاء في المعرة، لأن الصوري مدح عاملها غير مرة زمن سعد الدولة.

**٣- ٤- نتائج اللقاء:**

يبدو أن هذا اللقاء اشتهر بين الشاعرين، وكان موضع افتخار عند الصوري لتفوقه على المعري، ويبدو أن الصوري نقله إلى صديقه ابن حيوس (٣٩٤- ٤٧٣هـ)، إذ يقول هذا الأخير في وصف شعر عبد المحسن الصوري:

"إني ليعرض لي الشيء من شعر أبي تمام والبحتري، والمتنبي وغيرهم من المتقدمين، فأعمل في معناه، فأبلغ مرادي منه، ولا أقدر أن أبلغ من موازنة شعر عبد المحسن الصوري ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته"(٤١).

وقال أيضًا: "يقال: إن أغزل ما قيل قول جرير: [البسيط والقافية من المتواتر]

**إنَّ العيونَ التي في طرْفِها حَوَرٌ**
**قتلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحيينَ قتلانا**
**يصرعْنَ ذا اللُّبِ حتى لا حراكَ به**
**وهنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا**

وقول عبد المحسن أغزل منه: [مجزوء الرمل والقافية من المتواتر]

**بالذي ألهمَ تعذيـ**
**ـبي ثناياكَ العذابا**
**ما الذي قالَتْهُ عينا**
**كَ لقلبي فأجابا(٤٢)**

وإذ نقرأ هذا القول، يجب الإشارة إلى جملة أمور:

- لا نستبعد لقاء الشاعرين الصوري وابن حيوس، حيث كان لابن حيوس ٢٥ سنة عند وفاة الصوري، وإلا ما السبب الذي يدفع ابن حيوس إلى القول السابق في شعر عبد المحسن.
- إن العلاقة التي جمعت الشاعرين ابن حيوس والصوري هي علاقة قصيرة زمنيًا، بالنظر إلى تاريخ ولادة ابن حيوس (٣٩٤هـ)، وتاريخ وفاة الصوري (٤١٩هـ)، إذ من غير المعقول حصول اللقاء بين الشاعرين قبل سنة ٤١٥هـ، ويكون وقتئذٍ لابن حيوس حوالى ٢٠ عامًا، وهو تاريخ مقبول للقاء الشاعرين، أو أقل من ذلك بقليل.
- من المرجح أيضًا أن العلاقة بينهما لم تكن قوية في سنوات الصوري الأخيرة،

لأنه قضى معظمها في مدينة صور لا يخرج من بيته، وهذا ما دعا الشاعر النحوي إلى مراسلته.

- يمكن أن يكون اللقاء حصل في دمشق، ثم قام ابن حيوس بزيارة الصوري في مدينته صور في آخر أيام حياته.
- لقد وجد ابن حيوس في الصوري أنموذجًا سار عليه في حياته، وهو المديح الذي انتهجه ابن حيوس في شعره طوال حياته.
- في هذه المدة الزمنية التي التقى فيها الشاعران، كان المعري في شبابه، وقد كتب "سقط الزند"، بحيث لم تتبلور بعد رؤيته إلى القضايا الكونية والإنسانية، موضع اتهامه بعدم الإيمان بالبعث والحساب. بل على العكس من ذلك، فإننا نجد في "سقط الزند" قصيدته المشهورة "غير مجدٍ" التي يقر فيها بالحياة الآخرة والبعث بعد الموت، يقول المعري في هذه القصيدة: [الخفيف والقافية من المتواتر]

**خُلِقَ الناسُ للبقاء، فضلَّتْ**
**أمَّةٌ يحسبونَهم للنَّفادِ**
**إنما يُنقلون منْ دارِ أعما**
**لٍ إلى دار شِقْوة أو رَشَادِ(٤٣)**

هذان البيتان، مع باقي أبيات القصيدة، يختصران موقف المعري من قضايا الحياة والموت، بصيغة واضحة معلنة، تعتمد لهجة الإنسان المتألم الساخر على الحياة وأهلها، العاجز عن تغيير المصير، فيه إيمان بمصير النفس، وانتقال الصالحين من دار الأعمال في هذه الدنيا إلى دار الرشاد في الآخرة، أو انتقال المفسدين إلى دار الشقوة.

وبعدُ، نسأل: ألا يلتقي المعري هنا مع تعاليم الدين؟ ألا يذكر بقول الإمام علي: "أيها الناس، إنما خلقنا للبقاء لا للفناء، وكلكم من دار إلى دار تُنقلون"؟.

ونسأل أيضًا: ما طبيعة المناظرة التي جرت بين الصوري والمعري، والتي دفعت بالصوري إلى قول ما قال؟

أحقًّا أظهر المعري أمام الصوري عكس ما يُضمر من إيمان، لغاية في نفسه، وهذا ما ينسجم مع بعض أشعاره، حتى دفع الصوري إلى قول ما قال؟

إننا نستبعد تفوّق الصوري على المعري في هذه المناظرة إنْ حصلت، لأن ما بيّناه من شعر المعري لا يشير إلى عدم إيمان بالثواب والعقاب في مراحل حياته كلها. بل على العكس نرجّح، أنّ المعري، قال ما قال بهدف استنطاق الصوري وكشف القدرات المعرفية عند الصوري، ولا نستبعد أن تمادي المعري في إظهار الكفر، إنما كان من سبيل اللهو والعبث أمام شاعر مثل الصوري!!! ولا نستبعد أيضًا أن يقوم الصوري بالعودة إلى صور وإظهار هذا "الفوز" في المناظرة التي حصلت مع المعري بهدف التكسّب وإعلاء الشأن.

تبقى الإجابة عن هذه الأسئلة رهينة باستمرار البحث والتنقيب في كنوز شعرنا العربي، علنا نجد ضالتنا، وفيها اليقين، عبر الخوض في أعماق هذه الكنوز، لنُخرج منها ما يعجب القرّاء، ويضيء المستقبل بتراثنا المجيد.

## نتيجة البحث:

عبد المحسن الصوري شاعر "مغمور"، عاش ظروفًا صعبة في حياته، ما دفعه إلى المديح في معظم أشعاره بدافع التكسّب وتأمين قوت يومه. وهو ذو شاعرية كبيرة، سريع البديهة، عاش معظم حياته في مدينته صور، ولم يخرج منها إلا نادرًا. وأبو العلاء المعري، شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، ذائع الصيت، بنثره وشعره، وقد حظيا بمئات الدراسات، وما زالت الدراسات تكشف بعض الجوانب في حياة المعري. ولا شك بأنّ الشك واليقين صفتان طبعتا أدب المعري، وقد اختلف النقاد والدارسون حول فلسفته وآرائه في الكون والحياة والمصير. وقد عثرنا على ما يفيد بحصول اللقاء بين هذين الشاعرين، نتج عنه مناظرة في البعث والحساب . وفي ما وجدناه يزعم الصوري أنه "فاز" على المعري في هذه المناظرة، وأنّ المعري وافق الصوري الذي يقول بالبعث والحساب. بعد هذا العرض، نرى أن نسجّل الاستنتاجات الآتية:

- إن حصول اللقاء بين المعري والصوري كان في المعرة أو إحدى المدن الشامية، وذلك في المرحلة الأولى من حياة المعري، أي قبل رحيله إلى بغداد، وفي هذه المرحلة برز ديوان "سقط الزند" للمعري.
- ليس هناك من دليل قاطع يثبت أنّ المعري كان غير مؤمن بالبعث قبل المناظرة، ومؤمن به بعدها. وفي أشعاره ما يشير إلى عمق رؤيته وفلسفته وتبحّره في هذه المسائل، أي أن القضية لا تحدد بمناظرة يكتفي من خلالها بالتماس طريق الصواب والسير فيه.
- إن طبيعة الصوري وشعره "المدحي" لا تبعدنا عن الاعتقاد بأن الصوري يمكن أن ينقل خلاف ما جرى، إما بالزيادة أو بابتداع أشياء لم يتم الحديث عنها أصلاً.

## هوامش البحث:

١- ديوان الصوري: تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، العراق، دار الرشيد للنشر، ط١، ١٩٨١م، مقدمة التحقيق، ص٥.

٢- الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٧٩م، ج١، ص٢٩٦.

٣- أحمد بن محمد (ابن خلكان): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، لاط، لات، مج٣، ص٢٣٢.

٤- محمد كاظم مكي: الحركة الفكريّة والأدبيّة في جبل عامل، بيروت، دار الأندلس، ط٢، ١٩٨٢م، ص٥٠.

٥- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص١٢٤.

٦- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص١٢٤.

٧- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص٤٢.

٨- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص٤٢.

٩- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣.

١٠- عبد المجيد زراقط: دراسات في الشعر وأعلامه في العصر العباسي، بيروت، دار ابن باديس، ط١، ٢٠٠م، ص٣٧٩.

١١- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٥٨.

١٢- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص١٣.

١٣- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص١٢٩-١٣٠.

١٤- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص١٣٢.

١٥- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص١٤٧.

١٦- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٩٦.

١٧- الحركة الفكريّة والأدبيّة في جبل عامل: مصدر سابق، ص٥١.

١٨- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري، نسبه وأخباره، شعره، معتقده، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، لاط، ١٩٤٠م، ص٣-٢٠.

١٩- رمضان محمود كريم البالاني: شعر المعري من منظور القراءة والتأويل، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٢م، ص٣١.

٢٠- شعر المعري من منظور القراءة والتأويل: مصدر سابق، ص٩٤.

٢١- أبو العلاء المعري: اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، بيروت، مكتبة الهلال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٤٢هـ، ج٢، ص١٠٠.

٢٢- اللزوميات: مصدر سابق، ج١، ص٩٣.

٢٣- عبد الفتاح كيليطو: أبو العلاء المعري أو متاهات القول، المغرب، دار توبقال للنشر، ط١، ٢٠٠٠م، ص٣٦.

٢٤- معروف الرصافي: على باب سجن أبي العلاء، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، (طبعة خاصة مع جريدة السفير اللبنانية)، ٢٠٠٤م، ص٣٩.

٢٥- شعر المعري من منظور القراءة والتأويل: مصدر سابق، ص٩٦.

٢٦- أبو العلاء المعري أو متاهات القول: مصدر سابق، ص٣٠. أبو العلاء المعري، نسبه وأخباره، شعره، معتقده: مصدر سابق، ص١٢٥.

٢٧- أبو العلاء المعري، نسبه وأخباره، شعره: مصدر سابق، ص١٣٢.

٢٨- ا للزوميات: مصدر سابق، ج١، ص٥٥.

٢٩- ا للزوميات: مصدر سابق، ج٢، ص٤٠٩.

٣٠- ا للزوميات: مصدر سابق، ج١، ص٥٠-٥١.

٣١- ا للزوميات: مصدر سابق، ج١، ص٢٧٢.

٣٢- شعر المعري من منظور القراءة والتأويل: مصدر سابق، ص٩٥.

٣٣- اللزوميات: مصدر سابق، ج٢، ص١٥٦.

٣٤- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٢٤١.

٣٥- دراسات في الشعر وأعلامه في العصر العباسي: مصدر سابق، ص٣٩١.

٣٦- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٢٨١.

٣٧- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٢٧٣.

٣٨- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص٤١.

٣٩- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج٢، ص١٤٣-١٤٧.

٤٠- السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط٥، ٢٠٠٠م، مجلد١٢، ص١٢١.

٤١- ديوان الصوري: مصدر سابق، ج١، ص٤٧.

٤٢- ديوان الصوري: مصدر سابق، مقدمة التحقيق، ص١٠.

٤٣- أبو العلاء المعري: سقط الزند، مصر، الأزبكية، شارع المهدي، ١٩٠١م، ص٨٢.

## قائمة المصادر والمراجع:


١- ابن خلكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، لاط، لات.

٢- الأمين، محسن: أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط٥، ٢٠٠٠م.

٣- باشا، أحمد تيمور: أبو العلاء المعري، نسبه وأخباره، شعره، معتقده، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، لاط، ١٩٤٠م.

٤- البالاني، رمضان محمود كريم: شعر المعري من منظور القراءة والتأويل، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة بغداد، ٢٠٠٢م.

٥- الثعالبي، أبو منصور: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٧٩م.

٦- الرصافي، معروف: على باب سجن أبي العلاء، بيروت، دار المدى للثقافة والنشر، (طبعة خاصة مع جريدة السفير اللبنانية)، ٢٠٠٤م.

٧- زراقط، عبد المجيد: دراسات في الشعر وأعلامه في العصر العباسي، بيروت، دار ابن باديس، ط١، ٢٠٠م.

٨- الصوري، عبد المحسن: ديوان عبد المحسن الصوري، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، العراق، دار الرشيد للنشر، ط١، ١٩٨١م.

٩- كيليطو، عبد الفتاح: أبو العلاء المعري أو متاهات القول، المغرب، دار توبقال للنشر، ط١، ٢٠٠٠م.

١٠- المعري، أبو العلاء: اللزوميات، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، بيروت، مكتبة الهلال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٤٢هـ.

١١- المعري، أبو العلاء: سقط الزند، مصر، الأزبكية، شارع المهدي، ١٩٠١م.

١٢- مكي، محمد: الحركة الفكريّة والأدبيّة في جبل عامل، بيروت، دار الأندلس، ط٢، ١٩٨٢م.